الجهد حتى تميلهم عن رأيهم لأنك تعالج مرضاً مزمناً وداء متمكناً، ثم إذا أنت قدتهم بالخزائم إلى الاعتراف بأن لا معنى له غير توخى معانى النحو عرض لهم من بعد خاطر يدهشهم، حتى يكادوا يعودون إلى رأس أمرهم، وذلك أنهم يروننا ندعى المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معانى النحو شيء يتصور أن يتفاضل الناس فى العلم به، ويروننا لا نستطيع أن تضع اليد من معانى النحو ووجوهه على شيء نزعم أن من شأن هذا أن يوجب المزية لكل كلام يكون فيه بل يروننا ندعى المزية لكل ما ندعيها له من معانى النحو ووجوهه وفروقه فى موضع دون موضع وفى كلام دون كلام وفى الأقل دون الأثر وفى الواحد من الألف فإذا رأوا الأمر كذلك دخلتهم الشبهة وقالوا كيف يصير المعروف مجهولا، ومن أين يتصور أن يكون للشيء فى كلام مزية عليه فى كلام آخر بعد أن تكون حقيقته فيهما حقيقة واحدة ؟ فإذا رأوا التنكير يكون فيما لا يحصى من المواضع ثم لا يقتضى فضلا، ولا يوجب مزية، اتهمونا فى دعوانا ما ادعيناه التنكير الحياة فى قوله تعالى : ﴿ولكم فى القصاص حياة ﴾ من أن له حسناً ومزية، وأن فيه بلاغة عجيبة، وظنوه وهماً منا وتخيلا، ولسنا نستطيع فى كشف الشبهة في هذا عنهم، وتصوير الذى هو الحق عندهم، ما استطعناه فى نفس النظم، لأنا ملكنا فى ذلك أن نضطرهم إلى أن يعملوا صحة ما تقول وليس الأمر فى هذا كذلك، فليس الداء منه بالهين ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً والسعى منجحاً، لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث علماً بها، حتى يكون مهيئاً لإدراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له ذوق وقريحة يجد لها فى نفس إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة وممن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء

الإحساس الفنى قليل :

إن هذا الإحساس قليل فى الناس حتى أنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه فى شعر بقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ثم لا يعلم أنه قد أحسن فأما الجهل بمكان الإساءة فلا تعدمه فلست تملك إذا من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته ورى، وقلب إذا أريته رأى.